الفصل الثاني
جديد في حياة آل البنا

عندما جالست المفكر الكبير جمال البنا لترتيب وتنسيق وإخراج هذا الجزء من وثائق الإخوان المسلمين المجهولة، قال لي: على ما يبدو أن شقيقي الأستاذ عبد الرحمن البنا ساورته فكرة كتابة تاريخ عن دعوة الإخوان المسلمين يقتصر على العلاقة ما بينه وبين الأستاذ البنا منذ أن كانا غلامين في المحمودية حتى فرقت بينهما الأيام فدخل عبد الرحمن مدرسة التجارة المتوسطة ودخل حسن البنا دار العلوم وعُين عبد الرحمن بهندسة وابورات السكة الحديد، كما عُين حسن البنا مُدرسًا في الإسماعيلية فتفرقا ولكن جمعتهم الدعوة الإسلامية، فأسس عبد الرحمن «الجمعية الدينية» بمدرسة التجارة وبعد أن تخرج صعد بها إلى «جمعية الحضارة»، في هذا الوقت كان الأستاذ البنا قد أسس الإخوان المسلمين في الإسماعيلية، وعندما نقل الأستاذ البنا للقاهرة في سنة 1933 تلاقيا وكانا قبل ذلك فكراً في توحيد العمل، وتكوين «اتحاد» يضم الإخوان والحضارة، ولكن انتهى الأمر باندماج الحضارة في الإخوان المسلمين وكانت صفقة رابحة للاثنين، فالحضارة اكتسبت تأصيل الإخوان وفكر حسن البنا، والإخوان بدورهم وجدوا مجموعة «جاهزة» من الرجال، ولهم مكان وسابقة عمل فأراحوا الإخوان من أن يبدأوا الدعوة في القاهرة، وكانت المجموعة التي انضمت إلى الإخوان تضم شخصيات برزت في الإخوان فيما بعد، مثل حلمي نور الدين، وأحمد شريت، والشيخ الشعشاعي.. إلخ، فضلا عن عبد الرحمن نفسه ولكن فكرة شقيقي عبد الرحمن عندما أراد أن يضع كتابه عن حسن البنا في فترة لا يعلم الإخوان عنها شيئًاً - فترة الطفولة- والعلاقة ما بين الشقيقين حسن وعبد الرحمن وكيف أمضيا تلك الفترة الطويلة من سنة 1908...! عندما ولد عبد الرحمن حتى سنة 1924 عندما غادرت الأسرة المحمودية إلى القاهرة، ثم فترة القاهرة من سنة 1924 إلى سنة 1927 عندما ترك الأستاذ البنا القاهرة إلى الإسماعيلية، فهذه الفترة لا يعلم الإخوان ولا أحد شيئاً عن تفاصيلها، وليس لدينا إلا ما ذكره الإمام الشهيد عن طفولته في كتاب «مذكرات الدّعوة والدّاعية»، وكان كتاباً «من تاريخ الدّعوة» يمثّل للشقيق عبد الرحمن واجباً مقدساً كما كتب هو، ولكن الأستاذ عبد الرحمن كان يعيش تحت ضغوط صعبة، تأتت أساساً من أنه كان من الضروري أن يستكمل مرتبه الهزيل بما يكفي الحياة، بعد أن أصبح لديه أربعة من الأبناء؛ فكان عليه أن يكتب في الجمهورية عموداً يومياً، وأن يلقي في الإذاعة حديث الصباح مرة في الأسبوع تقريباً، ولكن هذه وإن أعانته فإنها لم تكن تكفل له مورداً ثابتاً دائماً، لأنها كانت تتمُّ على أساس «القطعة»، فهذه الضغوط حالت دون أن يتفرغ لمثل هذا الكتاب، فالقطعة لم تكن سخيَّة، ولهذا كان يكتب في بعض الصحف العربية التي تُقدم مكافأة كبيرة، وحال هذا كله دون أن يتفرغ لأداء الواجب المقدس الذي أراده، فلم يكتب إلا صفحة واحدة وفيما يلي ما كتبه:

هذا الكتاب الذي أقدمه لجمهرة الإخوان المسلمين وللمسلمين جميعاً وللإنسانية كافة هو إحدى الأمانات، التي يجب تأديتها لما شملته من وثائق ومخطوطات بخط إمام دّعوة الإخوان المسلمين ومؤسسها الإمام الشهيد حسن البنا، الذي أدعو الله تعالى أن يجعله ممن

ورد ذكرهم في حديث رسول الله «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها»، لقد جلس عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بين يديّ النبي يكتب صحيفته الصادقة من السّنة النبوية الشريفة التي يقول عنها: «هذه الصحيفة الصّادقة فيها ما سمعته من رسول الله وليس بيني وبينه أحد»، وكان يقول: «ما يرغبني في الحياة إلا الصّادقة والوهطّ، أرض لعمرو بن العاص تصدق بها ووقفها».

وتقدم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يخرج ما بجراب سيفه من حديث رسول الله حتى لا يكتم من السّنة الشريفة شيئاً، ولا تكون أمانة لم يؤدها؛ والذي يجعل هذا الكتاب أمانة في عنقي أنني الوحيد الذي يعاقبه الله تعالى إن كتمتها، وجميع الإخوان لا ذنب لهم في ذلك؛ إذ لم يحضر أحدٌ منهم هذه الحقبة، ولكنها قدري بحكم حضوري لها ومعاصرتي إياها _اللهم تقبلها مني واجعلها خالصة لوجهك الكريم_ فضلًا عن أن هذا ليس تأريخاً لإمامنا الشهيد؛ فتاريخه أوسع من ذلك وأعظم كثيراً، وقد يكون في الإخوان المسلمين عامة من كتب ذلك أحسن وأبلغ من كتابتي؛ فالرجل عالميٌ ودّعوته عالميّة _اللهم تقبلنا جميعا، واجعلنا بررة بأستاذنا وإمامنا الشهيد الذي نشر الله دعوته في الدنيا جميعاً_ فهي دعوة عالمية لأن مبناها الكتاب والسنة؛ وهما لكل العالمين وصدق الله تعالى في وصف رسوله «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ».

في بلدة المحمودية من أعمال مديرية البحيرة جلس شيخ وقور من أهلها في «دكانة» على شاطئ النيل يعمل في صناعة «إصلاح الساعات»، وإلى يمينه ويساره رفوف تحمل كتب التراث من التفسير والفقه والحديث وأصّول الدين، والشيخ الوقور يجلس إلى جواره ولداه حسن وعبد الرحمن ينظران بأبصارهما الصغيرة إلى صفوف هذه الكتب المذهبة الملتمعة المكتوب على بعضها تفسير الطبّري، صحيح البخاري، مجمع بحار الأنوار، سيرة ابن هشام، ويسمعان بأذانهما الدقيقة صوت الساعات التي أصلحها الوالد تدق دقات رتيبةً قد اختلط بعضها ببعض، فأحدثت في مجموعها صّوتاً عذباً يتواكب ويتناغم في دقة ورنين، الولدان حسن وقد ولد ببلدة المحمودية ضحى يوم الأحد 5 من شعبان سنة 1324 هجرية الموافق 14 أكتوبر سنة 1906 ميلادية، وشقيقه عبد الرحمن وقد ولد بالمحمودية في يوم الأحد 2 من رمضان سنة 1326 هجرية الموافق 29 سبتمبر سنة 1908 ميلادية... وقد أعدّ الوالد لولديه لوحين أبيضين رأس كلّ لوح منقوش باللون الأصفر، وأمامهما دواتان من الخزف «مكعبرتان» لهما ليفة من القماش أذيبت فيهما أصابع الحبر الأسود حيث خلطت بنقط من الماء، وأخذ كل ولد بقلم من البوصّ وقد سويّ القلم وقشط سّنه بالمبراة، والوالد يقول: اكتب يا حسن «بسم الله الرحمن الرحيم يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ»، واكتب يا عبد الرحمن «بسم الله الرحمن الرحيم يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ»، ويحدد اللوح بنصف الربع، وهو ما يقع في صفحة تقريباً من المصحف الشريف، يقول الوالد اقرأ عليّ فيقرأ حسن لوحه، ثم يقرأ عبد الرحمن ويقول الوالد: صحت القراءة فاحفظا حفظكما الله ، والتسميع غداً إن شاء الله بعد صلاة الفجر.

هذه كانت الصفحة تنمُّ عن معرفة دقيقة وثمينة ولا يمكن لغيره أن يكتبها ولو أنه مضى في مشروعه قُدُماً لكان هناك العديد من المناسبات والمواقف التي حدثت بينهما، ولعل بعضها أن يكون له دلالات عامة، ولكن الغريب أنه لم يكتب سوى تلك الصفحة الوحيدة، والله وحده يعلم السبب في هذا ولقد عثرت على كلمة كان قد كتبها بمجلة عطارد في عددها الخاص عن الأستاذ البنا، وكانت المجلة قد طلبت منه أن يكتبها وهذه هي بالنص:

«بقلم عبد الرحمن البنا... أستاذي... حضر لزيارتي محرر صحيفة عطارد الغرّاء في الوقت الذي كنت أقرأ فيه كتاب الهداية في قصة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وابتدرني بقوله: أريد كلمة للصحيفة، بعنوان أستاذي حسن البنا، قلت ألا تترك لي فرصة الاختيار؟ قال: لقد حددنا لك العنوان، قلت: إن بين العنوان الذي حددته وبين ما كنت فيه الساعة صِلة عجيبة، فلقد كنت أدرس مذهب الأحناف مع أن المذهب الذي اختاره لي فضيلة والدي ودرسه لي هو مذهب الإمام مالك بن أنس . رضي الله عنه . قال المحرر: فلم تحولت إلى دراسة المذهب الحنفي؟ قلت متابعة لسيرة أستاذي حسن البنا فلقد كان مذهبه . رضي الله عنه . هو مذهب الإمام الحنفي وإن كان عليه رضوان الله قد تعبد مدة بمذهب الشافعية، واستقرأ مباشرة من فقه السّنة النبوية المطّهرة، واستنبط من كتاب الله الكريم أحكاماً ونصوصاً سّمت به إلى مراتب الاجتهاد، ولأن حسن البنا كان أستاذ العصر، وإمام الجيل فلقد كانت أستاذيته لي مزدوجةً؛ فهو أستاذ مرتين: مرة ونحن صّبية يختصّني بأستاذيته، ويفيض عليّ من علومه ويبادلني وجوه الرأي، ويبصّرني بكثير من المسائل نتلو كتاب الله معاً ونقرأ الحديث، وما وعيت كما وعى ومرة يسّلكني مع الآلاف من جنوده ويحمّلني ما أستطيع حمله من أعلامه وبنوده، ويدفع بي مع من يدفع من خيّر أبنائه وتلامذته إلى آفاق الأرض، فيقول: هزوا جنبيّها دعاءً للخير، وابتغوا بجهادكم لدين الله عزاً وروعوا بغاة الشر فقد ركبتهم شياطينهم يؤزونهم أزّاً.

ولقد كانت لنا جولات ورحلات ورياضات روحيّة وتغريب عن البلاد في طلب العلم، وتطّواف بالمدن في طلب الكتب كما كان يطوف علماء قرطبة بأسواق الورّاقين فيها، ويقصدها العلماء من جميع الأقطار بحثاً عن مسألة أو تنقيباً عن مخطوط أو كتاب، ولم أنسَ رحلتنا من المحمودية إلى دسوق في زيارة عالم وطلب كتاب؛ أما العالم فأستاذ جليل يُدّعى الشيخ الأخضر وأما الكتاب؛ فسفر نفيس هو "إيقاظ الهمم في شرح حكم ابن عطاء الله السكندري لابن عجيبة الحسني،" وعدنا بالكتاب عود الظافرين من موقعةٍ حربية وكان الطريق إلى بلدتنا بحراً فركبنا السفن في النيل من دسوق إلى المحمودية وجلسنا حلقة نتلقى العلم، وأخذ أستاذي حسن البنا يتلو إحدى حكم ابن عطاء الله، حيث يقول : إذا

فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قلَّ عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه؟! وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك.. وأخذ أستاذي يشرح وقد أشرق وجهه بنور الله، وتوالت عليه الواردات، وكثرت الفتوحات وسّرت فينا روحانية عجيبة واشتدت الروحانية بأحدنا، وكان يكبرنا سناً ويكاد يكون لنا شيخاً وهو الأخ الشيخ محمد أبو شوشة أكرمنا الله وإياه فتمايل من الوجدّ، وكاد من شدة وجده أن يقذف بنفسه في النيل، لقد كان حسن البنا أستاذي في كلّ شيءٍ، أتابعه في خُطَوِه وأراقبه في شُدَوِه، فإذا خطا إلى دار العلوم سرت في أثره، وإذا قرأ المعلقات السبع رددت من شعره، وإذا عكف على الدرس عكفت معه فيقرأ الأشموني وأحفظ معه أبياتاً من ألفية ابن مالك ويدّعوني إلى السبق فأقف عند حدّي وأقول لست هنالك، حتى زيّه كلفت به، فكنت ألبس عمامته وجبته وقفطانه، وأذكر مرة ذهبت فيها لزيارة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب المدرس بدار العلوم والشاعر البدويّ الراوية وكنت ألبس العمامة، وكان رحمه الله يراني في أكثر الأوقات بالزيّ الأفرنجي فقال: حدثني أنت أفندي تلبس العمامة أم شيخ يلبس الطربوش؟ فقلت: أنا الأول. قال: يا عجباً أنت الأول فعلا فكل الناس أراهم الثاني... ونقلني حسن البنا في فصول مدرسته العجيبة فزاملت الدّعاة من إخواني وعاصرت الجيل الذي رباه على قواعد الدعوة لقد أنشأ حسن البنا مدرسة وربى جيلاً ودفع بأبنائه إلى أبعاد الأرض، فدّوت أصواتهم بالرنين وارتفعت حناجرهم بآيات الكتاب المبين، فوقعت الخارقة وأصّغت جموع الناس منصّتين: أيُّها الناس من لم يدرك رسول الله فليسمع إلينا، فقد مشينا في ركابه، ومن لم يتشرف بالمثول بين يديه فليأتنا، فقد وقفنا طويلاً على أبوابه ومن لم يقرأ سّيرته المطّهرة فليسمع ما نتلوه عليه من صفحات كتابه، هذه مدرسة حسن البنا، وهذه دعوته، وهذا جيله يلقن الأجيال من بعده هداية لمن تابعوه على حُسنّ السّيرة، ويصبُّ لعنته على الأيدي الآثمة المجرمة التي تآمرت على قتله واغتياله، وحرمان العالم من فضله وعلمه وجهاده، ولقد أراد الله تعالى أن يخلّد حسن البنا في دعوته وتلامذته وسيرته، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم». انتهى.

لو أننا قارنّاً أسلوب هذه الكلمة بأسلوب الكلمة السابقة لربما اتضح لنا سبب من أسباب عدم استمرار شقيقي في الكتابة عن الطفولة بالبساطة والواقعية التي تميّز الصفحة الأولى، إذ يبدو أن الأسلوب الخطابي الإنشائي والنبرة المتحمسة العالية والترادف... إلخ، حال دون أن يستمر في السّرد السهل البسيط الذي يتطلبه كتاب ذكريات طفولة، ولم أجد في أوراقه التي أودعها شنطته شيئاً عن الطريقة التي أمضى بها طفولته ولا المدرسة الأولية التي دخلها ثم المدرسة الابتدائية، وإن كنت قد عثرت على صورةٍ لم تحمل تاريخاً ولكنها أخذت له في فترة الصبا، وهي تنمُّ عن شخصية بارزة تختلف عن الشخصية التي حملها في حياته، ولم تكن تتسّم بالقوة أو الحيوية فقد كان نحيفاً ضعيف الجسم، وبالمثل فأنا لا أعلم الملابسات التي قذفت به إلى مدرسة التجارة المتوسطة؟ وهل هو انتظام صديق

عمره محمد أسعد الحكيم فيها فأحبَّ أن يدخلها أيضاً؟!، لا أعلم من هذا شيئاً ولكنني أعلم عددا من الأشياء خلال مدة دراسته بالمدرسة، منها: شهادة تثبت تفوقه، وأنه كان ينال الدرجات العليا في كل مادة حتى كتب الناظر بخط أحمر: أحسنت كل الإحسان.

كما قال جمال البنا لقد عثرت على خطاب وجهه والدي إلى وزير المعارف، وكان عبارة عن شهادة يعلن فيها: أنه فقير وغير قادر على دفع مصروفات أبنائه ليستكملوا دراستهم، وكان هذا الخطاب بخط يده وورد في نصه التالي:

حضرة صاحب العزة ناظر المدرسة الخديوية،،

يرفع هذا إلى عزتكم أحمد عبد الرحمن المأذون الشرعي بحارة الروم قسم الدرب الأحمر، ووالد عبد الباسط أحمد عبد الرحمن الطالب بالسنة الثانية بالمدرسة الخديوية.

في أول أكتوبر سنة 1930م تشرف ولدي المذكور بانتسابه لمدرستكم العامرة لما حازته من الشهرة ورقي التعليم، ودفعت له القسط الأول إذ ذاك رغماً عن شدة احتياجي إليه لكثرة التزاحم على المدرسة، وبما أني أعلم في نفسي عدم القدرة على القيام بالمصروفات المدرسية؛ لقلة ذات اليد وضعف كسبي وكثرة عائلتي، قدمت استمارة بطلب معافاته من المصروفات وضمنت فيها كل ما يجب تضمينه، ولسوء حظي لم تحز قبولاً، فعزمت على قطعه من المدرسة، ولكني وجدته من أنجب الطلبة حيث كانت شهاداته الشهرية هو الأول في معظم الشهور.

عزّ عليّ وأيمَّ الله إقطاعه بعد هذه النتيجة السّارة فرهنت المنزل الذي أمتلكه من حطام الدنيا، وثابرت على دفع المصروفات حتى كان في القسط الأخير بيع المنزل نهائياً وأصبحت الآن أسكن بالأجرة ولا أمتلك شيئًاً، انتهى العام ونقل الطالب إلى السنة الثانية، وكانت مجموعة نمره أحسن مجموعة، فكان ذلكم باعثاً لي على دفع القسط الأول في هذا العام، والله يعلم أني من أشد الناس حاجة إليه، ثم قدمت استمارة بطلب إعفاء ولدي من المصروفات المدرسية مرة أخرى في عهد معالي وزير معارفنا الحالي، مؤملة قبوله لما اشتهر عن معالي الوزير من أعمال البرّ والرحمة بالفقراء، ذكرت فيها عدد العائلة، وأنه ليس لي مرتب ولا ملك ولا كسب لي سوى وظيفة المأذونية التي كسد سوقها في هذه الأيام، وأصبحت لا تفي بثمن الخبز فقط، فضلاً عن المصاريف المنزلية والمدرسية ويمكن الاطلاع على جدول أعمالي بمحكمة عابدين الجزئية الشرعية.

ظهرت نتيجة الإعفاء وعوفي كثيرون من طلبة الخديوية ولم أجد لابني اسماً بينهم؛ فأرغمتني المدرسة على دفع القسط الثاني وكان هو البقية الباقية من ثمن المنزل، وبما أن لي أولاداً غيره، بعضهم بالمدارس الأميريّة الابتدائية وبعضهم بالأوليّة وكلهم بالمصروفات، رأيت أنه لا يمكنني القيام بهذا العبء الثقيل فلا حيلة لي إلا نزع ولدي المذكور من بين إخوانه الأصّفياء ومن مدرسته التي يألفها وحرمانه من المحاضرات التي يلقيها فيها أمام

عزتكم، وإعجابكم به وفي ذلكم تضحيته النّفسية والأدبية وبما أنه ليس لي معينٌ إلا الله تعالى * هذا ملتمساً تقرير ما ترونه حقاً في الطالب المذكور من جهة اجتهاده وتقدمه وسلوكه، وتقدمت إلى وزير المعارف عسى أن يحوز قبولاً لدى معاليه لأنه من أرحم الناس بالبائسين.**

أحمد عبد الرحمن

والد الطالب

عبد الباسط أحمد عبد الرحمن

حضرة صاحب العزة ناظر المدرسة الخديوية،،

يتقدم إلى عزتكم أحمد عبد الرحمن المأذون الشرعي بحارة الروم قسم الدرب الأحمر، ووالد عبد الباسط أحمد عبد الرحمن الطالب بالسنة الثانية بالمدرسة يعرض الآتي:

في هذا الشهر وصلني خطاب من المدرسة بطلب القسط الرابع من المصروفات المدرسية للطالب المذكور، وبما إني لا أستطيع دفع القسط المذكور لأنه ليس لي كسب ولا وظيفة لي غير المأذونية، ولأنها التي لم تفّ بحاجتي الضرورية في ***

فضلًا عن هذه الأيام التي كسدت فيه سوقها وما يأتي منها الآن لا يقوم بشأن رجل وزوجته، فضلاً عن ربّ أسرة كبيرة فلي منها ولد بمدرسة العطارين الابتدائية بالمصروفات وفي طيّه الإيصال الذي يثبت ذلك، وبنت بمدرسة زين العابدين الأولية الأميرية بالمصروفات أيضاً وفي طيه الإيصال كذلك، وولد رابع بالقسم الثانوي للأزهر يكلفني نفقات باهظة في الملابس والأدوات من كتب ونحوها، وقد حاولت مراراً وطلبت إلى الوزارة في العام الماضي، وفي أول هذا العام الدراسي استمارة خاصة بها كل حاجتي وعدم مقدرتي على مواصلة دفع المصروفات، فكان نصيبي الرفض الذي اضطرني إلى الاستدانة.

وبما أن لي أموراً تبرر طلبي هذا منها أن أعظّم إيراداً لوظيفتي الآن هو ثلاثة جنيهات شهرياً فأقل، ويثبت ذلك جداول أعمالي بمحكمة عابدين الجزئية الشرعية، ويمكن الاطلاع عليها ومدون أجرة كسبي بقسيمة الرسوم التي أوردها للمحكمة، ومنها أن الطالب المذكور من المتقدمين، وتارة يكون ترتيبه الأول أو الثاني ومجموع نمره متفوقة وحسن السير والسلوك، وعزتكم تعلمون ذلك ومنها المصروفات التي أدفعها للمدارس لأولادي الآخرين.

لهذا أرجو عزتكم شمولي بعطفكم، وعرض أمري على الوزارة لإعفائي من المصروفات المدرسية لهذا الطالب عبد الباسط أحمد عبد الرحمن.

وتفضلوا بقبول فائق احترامي،،،

أحمد عبد الرحمن

والد الطالب

عبد الباسط أحمد عبد الرحمن

ملحوظة:

إني لست من أرباب المرتبات ولا من ذوي الأملاك ولا التجار وليس لي وظيفة غير المأذونية.